

سؤال الهوية وتمثيلات الآخر في الخطاب الشعري الفلسطيني - ابن الشاطئ - نموذجاً

The question Of Identity And Representations Of The Other In Palestinian Poetic Discours -
Ibn Al Shati- As A ModelLa question de l'identité et des représentations de l'autre dans le discours poétique palestinien
- Ibn Al Shati - comme modèleياسين حب الحمص¹، عبد الكريم طيبش²

تاريخ الإرسال: 2024/11/12 تاريخ القبول: 2025/09/16 تاريخ النشر: 2025/12/31

ملخص:

تحمّل الهوية بعداً ذاتياً واجتماعياً، هذا ما جعل الخطاب الشعري الفلسطيني يمنح مساحة شعرية واسعة تظهت من خلاله تقلبات الهوية بين الثبات والتشتت، فالدفاع عن الحيز المكاني والزمني والثقافي ضرورة إنسانية التزمها الشاعر تجاه القضية الفلسطينية، وقد شكّل (الآخر) طرفاً في إشكالية ضمور الحس بالانتماء لدى الفلسطيني، لهذا كان استحضاره حاجة ملحة في شعر ابن الشاطئ سواء عن طريق الضمائر أو الصفات والرموز، وتحديد تأثيراته عن طريق السلوك.

الحديث عن الهوية المكانية والنفسية والاجتماعية جعلنا نبحت في الخطاب الشعري لابن الشاطئ عن إمكانية وجود هوية زمنية، وهو ما تجلّى من خلال استخدام الشاعر لمصطلحات الزمن والأحداث المعروفة له، وكذا استخدام تقنية التناص بشكل يفتح النص على فلاشات زمنية يعبر إليها الشاعر، ثم يعود بعد ذلك إلى زمن النص ليتبين القارئ من ذلك كيفية تشكّل الهوية الزمنية، بالنسبة للآخر جعلتنا هذه الدراسة أمام ضرورة إخراجه من التصوير الجامد من خلال إعطائه مقابلات مباشرة، إلى إلحاقه بالقيمة الجمالية المتشكّلة أثناء تحريكه للأحداث.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الشعري الفلسطيني؛ الهوية؛ الآخر.

Abstract :

Identity bears a social and subjective dimension. This has made Palestinian poetic discourse a wide area of poetry through which identity fluctuations between persistence and fragmentation are manifested. Defending spatial, temporal and cultural space is a human necessity. (The other) is a party to the problem of the atrophy of the sense of belonging to the Palestinian, for this reason his evocation was an urgent need in the hair of the son of the beach, whether through pronouns or qualities and symbols, and to determine its effects through behavior.

Talking about spatial, psychological and social identity made us look at the beach son's poetic discourse about the possibility of a time identity. s use of the terms of time and the events

*المؤلف المراسل

¹ Yacine habelhames, Abdelhafid Boussouf University Center of Mila, Laboratory of contemporary criticism methods and discourse analysis: Algeria, y.habelhames@center-univ-mila.dz.

² Abdelkrim tebbiche, Abdelhafid Boussouf University Center of Mila: Algeria, a.tebbiche@center-univ-mila.dz.

defined by it, As well as the use of tendering technology in a way that opens the text to time flashes to which the poetry.

Keywords: Palestinian poetic discourse; identity; other.

Résumé :

L'identité comporte une dimension sociale et subjective. Cela a fait du discours poétique palestinien un vaste domaine de la poésie à travers lequel se manifestent des fluctuations identitaires entre persistance et fragmentation. Défendre l'espace spatial, temporel et culturel est une nécessité humaine. (L'autre) est partie prenante au problème de l'atrophie du sentiment d'appartenance du Palestinien, c'est pourquoi son évocation était un besoin urgent dans les cheveux du fils de la plage, que ce soit à travers les pronoms ou les qualités et symboles, et déterminer ses effets à travers le comportement.

Parler d'identité spatiale, psychologique et sociale nous a amené à nous pencher sur le discours poétique du fils de la plage sur la possibilité d'une identité temporelle. s l'utilisation des termes du temps et des événements définis par celui-ci, ainsi que l'utilisation de la technologie d'appel d'offres de manière à ouvrir le texte aux éclairs de temps auxquels la poésie.

Mots clés : discours poétique palestinien ; identité ; autre.

مقدمة

المسارات المتأزمة التي تمر بها التجربة الشعورية للشاعر تساعد على إيجاد الغاية والهدف من التّظّم، ومثال ذلك ما كان من تأثير "الترحّل" وترك الدّيار على الشّاعر العربي الذي رغم افتقاده لهويّته المكانية، استطاع إثباتها عن طريق مواضيعه الشعريّة، فالبكاء على الأطلال ووصف البيئة واستدكار الحبيبة كلّها مواضيع شعريّة أرّخت للهوية العربيّة، فبمجرّد وصول النّص إلى القارئ -بغضّ النظر عن زمن القراءة- يتسوّى له معرفة زمن الكتابة من خلال إحياءات المكان والثقافة والمعجم اللغوي المستخدم، ولا يمكن استثناء الشّاعر المعاصر من هذا الوصف، قياسا على المضامين الشعريّة التي ناسبت العصر وقضاياه.

حافظ الخطاب الشعري الفلسطيني على مظاهر البيئة الثقافيّة والإجتماعيّة والمكانية التي تشكّل الهوية الذاتيّة أو الجماعيّة، خاصّة وأنّ الخطاب يحتمل دائما وجود (آخر) تحرّك سلوكياته تجاه الفلسطيني الصّراع على الوجود والقيم.

التزم إسماعيل إبراهيم شتات (ابن الشاطئ) بالدّفاع عن القضية الفلسطينيّة من خلال خطابات الشعريّة، وقد أبحج هذا الالتزام اغترابه عن بيئته المكانية، ما أنتج أبنية شعريّة ميزتها الصّراع، وتيمتها رفض الآخر المعتدي على الأرض أو المتخاذل عن نداء الوطن.

تستمد القصيدة العربية أبنيتها من البيئات المتعددة للشاعر، فهل يمكن القول أنّ "الشعر" انعكاس لهذه البيئات؟ وهل يمكن للقصيدة أن تبرز الهوية الشخصية والجماعية للشاعر؟ وما دور الآخر (الاجتماعي والثقافي) في رسم أو تغيير مسار القصيدة؟

تجتاز الشعوب الكثير من الأزمات، غير أنّ هذه الأزمات قد تترك بعض الشروخ التي تعزز الحس بالانتماء والثقة في "الآخر"، كما أنّها قد تتسبب في شتات المجموعات وانتكاس القومية والوطنية ما يجعل من الآخر يتمثل في صور سلبية، الأبنية التركيبية والدلالية للخطاب الشعري لابن الشاطئ جعلنا نستعين بتقنيات المنهج الأسلوبي في الدراسة والتحليل.

1- تجليات الهوية في الخطاب الشعري الفلسطيني

اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية، محدّدة بقواعد، ومكوّنة من عناصر لغوية منتظمة، فإذا كانت هذه "اللغة شعرية" بصفة خاصة، لا بدّ ستخضع لتأثيرات الحيز المكاني والزمني، لأنّ المحمول اللغوي للشاعر الجاهلي لا بدّ يتّسم بطابع الجزالة وغريب اللفظ وقوة المعنى، وذلك لبعد العرب عن غيرهم من الأعاجم، ووطأة بيئتهم على أبنية اشعارهم الشكلية والمضامينية، ويمكن للقارئ الكشف عن هوية الشاعر الزمانية والمكانية من خلال المعجم اللفظي وكذا الظواهر اللغوية والبلاغية، ولا يُستثنى الشاعر المعاصر من هذه العلاقة بحكم أنّه ابن بيئته يتأثر بها ويؤثر فيها، فتتجلى هويته قصداً أو عن غير قصد.

1-2 مفهوم الهوية

المعطى التشاركي لمفهوم الهوية بين مختلف الاتجاهات الفلسفية والنفسية والاجتماعية والأدبية جعل تحديد مفهوم دقيق لماهية الهوية أمراً صعباً، ومع غياب تعريفها في المعاجم اللغوية العربية غير انزياحها من مفهوم (هوى) "هوّهُ وهوى. والهوّ البئر، قال أبو عمرو، وقيل: الهوّ الحفرة البعيدة القعر، وهوى النفس: إرادتها، والجمع أهواء، قال الله عزّ وجل: ونهى النفس عن الهوى، معناه نهّاها عن شهواتها" (منظور)، (2003م)، وجب البحث عنها بوصفها من أبرز مقومات الإنسان بحكم إبرازها لميولاته الدينية والثقافية والاجتماعية وغيرها، خاصّة وأنّها أحيانا ما تكون فردية تميّزه عن الآخرين، وأحيانا أخرى تشارك مجموعة بشرية فيها انطلاقاً من طغيان التفكير الجمعي وموروثات العادات والتقاليد التي تشكّل ثقافة عموم الجماعة.

يمر مفهوم الهوية أثناء البناء والتشكّل على مجموعة من الدلالات توضح الأبعاد التي يمكن أن تغدّي مفهوم الهوية، فالفكر الوجودي مثلاً انطلق في بحثه عن الهوية من السؤال عن الذات باعتبارها وجوداً، والماهية التي بحثت في هذا الوجود واعتبرت كلّ ما تعلّق به هوية، هنا كان لزاماً تحكيم مفاهيم وأسس علم النفس في تفسير الذات من خلال المشاعر والأحاسيس والوجدان والسلوك المكتسب من خلال التفاعل الاجتماعي، وعليه يمكن القول أنّ استقرار الذات الموجودة

قادر على تثبيت المشاعر والأحاسيس والسلوكيات ما ينتج استقرار في الهوية، وعكس ذلك صحيح، كما أنّ العلاقات الممارسة داخل الأوساط الاجتماعية قد تؤثر على هوية الذات إيجاباً وسلباً قياساً على أنّ المجتمع هو مجموعة من الأفراد، في هذه الحالة تنصهر الهوية الفردية (الذاتية) في الهوية الجماعية أثناء التعبير عن الوجود النفسي والاجتماعي والثقافي.

من هذا المنطلق نستطيع القول أنّ الهوية يمكن أن تنشئت وتضمحلّ أو تتطور مع تغير الزّمان (فارق العمر) والأشخاص (الانتقال من مكان إلى آخر) والظروف النفسية (الحب، الحرمان، القهر)، وأنّ مفهومها خاضع لظروف نفسية وأخرى اجتماعية وثقافية "الهوية نظام متكامل، ينمو ويتطور لينتج كيانا روحياً انفعالياً يعيش بداخلنا خلال مراحل العمر المتعاقبة، يبدأ من مراحل الطفولة، ثم ينتقل إلى مراحل البلوغ والتكليف، التي يشتدّ فيها النزوع إلى المعطى الإيديولوجي والتوجّه العرقي والاجتماعي والديني الذي تقوم عليه الجماعة" (توفيق، 2016م-2017م).

1-3 الهوية في الخطاب الشعري لابن الشاطئ

يتميّز الخطاب الشعري بقدرته الكبيرة على نقل المحمول الثقافي والاجتماعي والنفسي الذي عاشه الشعراء بطريقة فنية وجمالية، تجعل المتلقي يندمج في التجربة الشعورية للشاعر، كما تساعد على استنطاق خصائص العمل الشعري. أحيطت التجربة الشعورية لابن الشاطئ بظروف النشأة وكذا الصراعات الذاتية والاجتماعية والثقافية التي شكّلت وعيه، هذا ما ساعد على تجلّي هويته المكانية، والزمانية، الثقافية والاجتماعية وحتى الانتماءات الدينية والعقائدية، ولعلّ هذا كان نتاج التزام الشاعر بالقضية الفلسطينية التي شكّلت محور الخطاب الشعري له.

شكّل المكان في شعر ابن الشاطئ هاجساً نفسياً واجتماعياً، خاصّة وأنّه غرّب عنه في سنّ مبكّرة ليجد نفسه في أوساط لا تشابه ثقافته الفكرية والسياسية، فراح يبحث في خوالج نفسه عن ملامح المكان حيث هوية الوجود الأوّل، يقول ابن الشاطئ:

أتذكرين يوم هاجرنا وصرنا بلا وطن يفلسفنا الزّوال
وكيف غدت منافينا سجوناً تسورها الهوامش والظلال
وكيف تحوّلت مدن جهارا عن الأقصى يضاجعها احتلال

(الشاطئ، 2009م، صفحة 1068)

سيطرت مشاعر الفقد على الشّاعر فأخذ يللم شتات هويته المكانية التي بعثرها المنفى، في محاولة منه إلى تشكيل هويّة مكانية شعرية علّها تعوّضه وتنفض بالحياة، فالمنفى رغم اتّساعه سجن، والوجود دون فلسطين زوال، هكذا عبّر الشّاعر عمّا أراد له الاحتلال جراء تهجيريه، لكنّ ارتباطه بالوطن الأمّ، يبيّن استحالة تشكيل هوية مكانية جديدة.

ساير المعجم اللغوي لابن الشاطي إشكالية الهوية المكانية التي راودته، فلا وجود لذكرات حوله تواسي هم غربته، فقط حزن واشتياق، وأمل في العودة منقطع، يقول الشّاعر:

أعيش همّي بعيداً عنك... محترقاً ومن يسافر قسراً لا يرى أفقاً
على حرائق أيّامي وضعت يدي فهالني الشّوق واستوعبت ما علّقنا
(الشاطي، 2009م، صفحة 310)

يرصف الشّاعر مفرداته، ويحمّلها أغراضه ومعانيه، فيتجلّى خطابه الشعري وقد أثقل بهاجس الرّغبة في الانتماء إلى حيث الأصل والهوية "المكان محور التجربة الإنسانية، والذاكرة، والرّغبة والهوية" (كريس، 2018).

اغتراب الشّاعر عن فلسطين حفّز الذاكرة والخيال، وجعل المكان غاية الخطاب فاستجدى بصوره وأوصافه وأضاف عليه من تراكيب اللغة ومفرداتها ما أضفى الأثر الجمالي على تجربته الشعرية.

حقّقت الهوية المكانية الشعرية بديلاً عن حرقة الفقد للوطن، فاستعارة الشّاعر لفلسطين ومدنها وروايتها جعله يعيش نشوة الانتماء وفرحة النصر، لكنّه سرعان ما انتكس أمام سطوة الزّمن، الذي زاد وطأة الشوق ولوعة الغربة، فكلّ ساعة تمرّ بعيداً عن فلسطين تتناقل دقائقها وتحمل في طيّاتها القهر والصّغار.

إنّ حقيقة عدم حسّية الزّمن لا تلغي أبداً آثاره الوجدانية والجسدية في الذات "نحن لا نرى الزّمن بالعين المجردة، ولا بعين المجهر أيضاً ولكننا نحسّ آثاره تتجلّى فينا وتتجسّد في الكائنات التي تحيط بنا" (عبدالمملك، 1998م)، فانقضاؤه دون تحقيق الغاية والمراد يُفقد هويّته، بل إنّنا غالباً ما نذكر الزمن بأحداثه، فإذا غابت عنه فقد هويّته، وقد ارتسمت الهوية الزمنية للشّاعر من خلال الاضطرابات التي أوقعها في نفسه، فرحلة عمره لم تؤدّ الهدف المنوط بها، فأصبح يتحسّس منجزاته فلم يجد غير القهر والوحدة، يقول ابن الشاطي:

يا رحلة الخمسين عاماً زلق الزّمان وما استقاما
وبقيت وحدي مشبعاً قهراً.. أجرك مستهما

(الشاطي، 2009م، صفحة 713)

يبحث الشّاعر في ثنايا الخمسين عاما التي مرّت من عمره علّه يجد حدثا يمجّده ويؤرّخ به لذاته، لكنّه سرعان ما يعبر عن هذه الفترة بقوله: (زلق الزّمان وما استقاما)، والعبارة هنا تجاوزت سرعة انقضاء الزّمن نحو التعبير عن فشل هذه المدة الزمنية في تغيير حال فلسطين والشّاعر معا، أمّا حصادها فوحدة وقهر وشتات.

استطاع الشّاعر أن يجسّد عجز خمسين عاما عن رسم معالم لها تصنع هويّتها، فلا الشعوب استنفرت ولا القدس حرّرت ولا الشّاعر عاد إلى أرضه، فاستعان الشّاعر بتقنية التّناس من أجل أن يمنح نصّه فسحة زمنية، يستشعر من خلالها النّصر ويمنح للزّمن هوية تليق به وتشرفه، يقول ابن الشاطئ:

واترك نزيّفي وحاذر أن تلوّثه يوما، فكم حضرت أوفى وما حضروا

اغرب بعيدا طويل العمر مختزنا زيف الشعارات (عام الفيل) مقتدر..

(الشاطي، 2009م، صفحة 36)

أسقط الشّاعر واقعة عام الفيل على حال القدس اليوم، ففي كنف التخاذل الذي أحاط بالأقصى لسنوات طويلة، تجلّى الحدث التاريخي الذي نصر الله فيه بيته الحرام بجند من عنده، كأنّ بالشّاعر يضمن أنّ الزّمن المناسب لتحرير الأقصى سيكون له حدث خاصّ به يمنحه الهويّة والنّصر معا، كما منح النّصر هوية عام الفيل.

استهوت الهوية الزمنية فضول الشّاعر، فأخذ يتحسّس التاريخ بحثا عن وقائع يخفّف بها ألم الخذلان وشخصيات تعينه على شدّ عضد الرافضين والمناضلين من أبناء فلسطين وغيرهم، فوجد في شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفرة خلافته ما التّص في حاجة إليه، فاستدعاه في خطابه الشعري قائلا:

أو ليست حقيقة الأمر أنّا في فلسطين ثورة لانتحاي

وبأنّا في الرافدين وجود عمري يجتاح كل الصعاب

(الشاطي، 2009م، صفحة 1165)

يتجلّى الحضور العمري في الخطاب الشعري لابن الشاطئ من خلال أفعاله (يجتاح كلّ الصعاب) وهي إحالة مباشرة لأخلاق وفترة خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، حيث العدل والمساواة والحروب والغزوات وتوسّع بلاد المسلمين عن طريق الفتوحات، وقد أراد الشّاعر من خلال هذا الاستدعاء لشخصيته العودة بنا إلى فترة زمنية صنع فيها المسلمون أمجادهم، واكتسب الزّمن بفضلهم هويّته.

لا يمكن للذات أن تنفصل عن هويتها لكن الظروف المحيطة بها قد تؤثر على تحقيق هذه الهوية أو اضمحلالها، ولأنّ هنالك دائما ذاتا عليا يطمح الفرد إلى بلوغها، كان كلّ خروج عنها تشكيكا في الهوية، ولعلّ هذا ما جعل الشّاعر يبحث عن هويّته من خلال خطابه الشعري التي أشار فيها إلى تمثّلات ذاته الشّاعرة من جهة، والاجتماعية من جهة أخرى، يقول ابن الشاطي:

أنا ليس لي إلا أنا وهواك والأمل الصّغار
وسلاحي الفردي عمـ سر الشّوق تحضنه الدّيار
أنا ليس لي إلا أنا ودمي الطّهور ضحي ونار
(الشاطي، 2009م، صفحة 822)

هوية الذات تتمظهر في علاقتها مع الآخر "يعيش الإنسان مع الناس ويتفاعل معهم ويرتبط بهم بعلاقات اجتماعية، تؤثر في صحّته النفسية تأثيرا إيجابيا وسلبيا وفق هذا التّنوع في العلاقات" (محمد، 2003م) والدّوائر المكانية والزّمانية التي يعيش فيها الشّاعر تؤثر على الحسّ النفسي والشّاعري له، وكل اختلال في هذه الدّوائر ينمّي الشعور بالإغتراب وتشتّت الهوية، فقول الشّاعر في هذا المقطع (أنا ليس لي إلا أنا) هو نفي للاشتراك مع غيره، ثمّ جاء الاستثناء على مشاعر الهوى والأمل والشّوق التي عزّته في وحدته وساعدته على تشكيل هويته الوجدانية، ضف إلى ذلك قوله (سلاحي الفردي) الذي يدافع به عن نفسه ودياره، من هذا المنطلق نستشف أنّ علاقة الشّاعر مع الآخر (المجتمع، الأهل، الأصدقاء...) منقطعة، فارتباطه كان وجدانيا وماديا خالصا.

إشكالية الهوية الذاتية تتمحور حول عدم مشابهة المشاعر والأحاسيس بين الأفراد، فكل ذات تملك مشاعر خاصة يحكمها الوعي، فابن الشّاطي مثلا شكّل وعيه بالقضية الفلسطينية هاجسا نفسيا دفعه إلى العزلة والانطواء، فاختلفت بذلك رغباته النفسيّة التي انعكست على خطابه الشعري، يقول:

لحظات من الأنا.. ضاع فيها كلّ شيء.. وضع حتّى مدادي؟؟
أنهكتني الشّكوى وما زلت وحدي أتسلّط على شفاه الرّماد
تلك معزوفة تضاعف همّي وتناني حقيقي واعتقادي
(الشاطي، 2009م، صفحة 702)

الشّتات الذي تعرّضت له ذات الشّاعر جعلته غير قادر على تحمّل الفقد في حاضره، ولا استحضار ذكريات ماضيه (ضاع كلّ شيء)، هذا الحسّ طوّع لغته وصوره الفنية فجعلنا نرى الخطّ الفارق بينه وبين من حوله، فالتّار التي أحرقتها وأهله، بعد انطفائها بقي هو يتلظّى في رمادها، هنا يبرز دور الوعي في تشكيل الهوية الذاتية.

يشترك ابن الشّاطئ مع أبناء وطنه في الانتماء، ويختلف معهم في كيفيته، ويتجلّى هذا في تعامله مع القضية الفلسطينية، ففرار البعض حيث الهدوء والسلام ورضوخ البعض الآخر واستسلامهم للتعايش أثنى عزيمته، لكنّه لم يبدّد خياره لعلاج جروحه، "هناك احتمال الخضوع أو الرّضوخ والاستسلام للأمر الواقع والتّكيف معه ظاهرياً والتّفور منه ضمناً عندما يستحيل الهرب" (حليم، 2006م).

انتكاس الذات وفقدانها هويّتها لا يمكن أن يكون فطرياً، بل إنّ عوامل النشأة تلعب دوراً كبيراً في تحديد هوية الفرد قياساً على أنّه عنصر فاعل في محيطه، فيكتسب من ثقافة الجماعة وتفكيرها وعاداتها ومبادئها ما يمكنه من التعايش سلماً وإيجاباً، وفي إطار هذا التعايش تنشأ هوية ذاتية تنفرد بالصفّات والقرارات والمشاعر كالتّي سبق ذكرها، وهوية أخرى جماعية تتقاسم مع المجتمع همومه وآماله وقضاياها.

وعى الشّاعر الشّخصي أزم وضعيته النفسية وجعل هويته الذاتية تنزع نحو الانطواء والانكماش والحوارات الداخلية، لكنّ هذا لم يمنعه من الاندماج في الهوية الفلسطينية الجمعية وإبداء آرائه وحواراته مع المجتمع، يقول ابن الشّاطئ:

من ترى نحن في عيون الرّحام أعدارى نحبّ ريش النّعام..؟

(الشّاطئ، 2009م، صفحة 38)

(من ترى نحن) سؤال عن الماهية، لكن ليس في عين المتسائل (الشّاعر) بل في عيون الآخر (زحام الأحداث والرؤى والقرارات والمجتمعات الداعمة والمناهضة)، وقد تمحور الجواب حول سؤال تهكمي يعبر فيه الشّاعر عن سخطه (أعدارى نحبّ ريش النّعام) والقصد هنا أنّ فلسطين لا تنعم بما كان يجب من أمن وأمان وحرّية، وأنّ أهلها قد خسروا من زهرة العمر الكثير، وما هم فيه من شقاء واغتصاب للأرض واستحلال للدّماء قد غاب عن مرأى الخونة والمطّبعين ومدّعي السّلام وحقوق الإنسان.

أبرز ابن الشّاطئ تشبّهه بهويّته الاجتماعية، لأنّ كلّ ما يصيب فلسطين يؤثّر في نفسيته "البعد التّفسي للشّاعر يتدخّل في الأسلوب الذي يتعامل به الشّاعر مع الأشياء" (موسى، 2011م)، وقد تجلّت علاقة الشّاعر بقضيّته وأرضه في أبنيته الشعرية اللغوية والفكرية، فجعل الحوارات سمة خطابه الشعري، حوارات تكون أنا الشّاعر طرفاً فيها، أمّا الطّرف

الثاني فيشكّله الانتماء والوطن، القاسم المشترك بينهما (أنا الشاعر/ فلسطين وشعبها) حالة القهر والعجز والانشطار والخيبة.

تمسك ابن الشاطي بهويته الفلسطينية رافضا لكل أشكال الطمس والإبعاد، فطوّع لغته لإثبات انتمائه، وأنّه صاحب الأرض واللغة والثقافة والأهل، وأبدع قصيدة بعنوان "الأنا العامة...و...منتهى الحب...." (الشاطي، 2009م، صفحة 80).

(الأنا العامة) هذه الجملة تصريح من الشاعر امتلاكه هويتين، الأولى خاصّة تشكّل حواراتها داخليا (سبق ذكرها في الهوية الذاتية)، والثانية عامّة وهي التي تشارك الأمة همومها وقضاياها (الهوية الاجتماعية) وقد أعطف عليها الشاعر عبارة (منتهى الحب) إبحاءً منه بأنّه يعيش أسمى معنای الحب في معية أهله ووطنه، يقول:

أيقظني فيّ ما تشاء بلادي وصليني مجدداً بجيادي
واحفريني على محاجر عكا حلم (سفانتي)..ووجه (سعادي)..
واسكنيني هوى كبيراً..كبيراً وتعريّ في معطيات اعتقادي

(الشاطي، 2009م، صفحة 80)

استفتح الشاعر قصيدته بعرض نفسه خادماً لبلاده ينتظر أوامرهما، يطلب وصله بجياد الفتح والقتال، ويريد إثبات أحقيته بأرضه ونقش اسمه على محاجرهما حتى يستحيل طمسه أو نسيانه، هكذا تريد ابنته سفانة أن تراه شامخاً في أرضه ويرى هو وجه زوجته سعاد ويلتمّ شمله بها، ولم يكتف الشاعر بتعابير الانتماء والهوية هذه، بل استدعى فلسطين كلّها لتسكن هواه الذي سيسعها رغم كبرها، وهناك بإمكانها البوح بكلّ ما تعانیه أو تطمح إليه.

2- دور الآخر في تشكيل أو طمس الهوية في شعر ابن الشاطي

تحوّل الخطاب الشعري الفلسطيني حول مجموعة من الإشكاليات، خاصّة من أولئك الذين أعلنوا التزامهم بالقضية الفلسطينية التي تُهدّد هويتها، وقد تلخّصت هذه الإشكاليات في جعل الخطاب الشعري محمّلاً برسائل النضال والمقاومة، وكذا جعله صوتاً يتجاوز حدود المكان والزمان، والظاهر أن الحديث عن النضال والمقاومة ومحاوله إبلاغ صوت القضية إلى متلقّين يفتح الباب أمام إشكالية: النضال ضد من؟ المقاومة لأجل من؟ إبلاغ صوت القضية لمن؟

قراءة الخطاب الشعري لابن الشاطي تضعنا أمام فرضية وجود آخر يعمل على طمس أو تشكيل الهوية الفلسطينية، سواء من خلال أعمال القتل والترهيب والتهجير وسلب الممتلكات وتغيير العقائد والتوجهات، أو من خلال الدّفاع والنضال

والمقاومة، هذا ما يجعلنا أمام حتمية معرفة هذا الآخر ودوره في تشطّي الهوية الفردية والجماعية للفلسطيني وكذا أبرز تظاهراته في الخطاب الشعري.

لا يمكننا معرفة الذات دون الآخر، فال (أنا) يمكن رؤيته من زاوية مغايرة على أنّه (آخر) "مفهوم الآخر يتأسّس على مفهوم الجوهر، أي ثمة سمة أساسية جوهرية تحدّد الذات مما يجعل الآخر مختلفا عنها، وبالتالي لا ينتمي إلى نظامها أيّا كان" (ميجان، 2002م)، بمعنى أنّ كل خروج عن جوهر الذات هو بالنسبة لها (آخر)، وقد يتجسّد (الآخر) على شكل مفرد أو مجموعة تربطه علاقات غير محدّدة مع ال(أنا/الذات) "الآخر بالمفرد أو الجمع: الذي نعيش معه تجارب كالقراية والصداقة والحوار، أو كالمنافسة والخصومة والعداء" (حميش، 2009م)، إذن فتحديد طبيعة (الآخر) متعلّقة بالأفعال والسلوكيات. ووجه ابن الشاطئ خطابيه الشعري إلى نماذج من ال (آخر) حدّدتها سلوكياته وأفعاله تجاه فلسطين وشعبها أبرزها: (الآخر الفلسطيني الثائر)، (الآخر: الحاكم العربي العميل)، (الآخر: العربي المتخاذل العاجز)، (الآخر: الصّهيوني الغاصب).

2-2 صورة العربي في شعر ابن الشاطئ

وعى ابن الشاطئ بالقضية الفلسطينية وملا بساها جعله أكثر حرصا على محاولة حفظ الهوية الفلسطينية من الاندثار، ففي الوقت الذي ينتظر فيه الشاعر حكّام العرب أن يقفوا إلى جانب القضية الفلسطينية، كان الخذلان نصيبه، فلم يستطع كبح قلمه عن البوح بما يخالج نفسه ضدّ كل حاكم عميل، يقول ابن الشاطئ:

وحدي أنا والحاكم ال عربي في أبهى طلاء

يقتات من وجع الرّبي ويطلّ من تحت الحذاء

(الشاطئ، 2009م، صفحة 563)

يتمثّل (الآخر) في هذا المقطع في الحاكم العربي العميل، حين تخلّى عن القضية الفلسطينية تداس كرامتها وتُسلب أراضيها ومعالمها، (وحدي أنا) هكذا عبّر الشاعر عن قدر الخذلان الذي يعانيه، أما الحاكم العربي فهو في حلة بهيّة، ينتظر أوامر الأسياد، يأكل بقايا طعامهم كجزء عن السكوت، ويتلصّص الأخبار من تحت أقدامهم دون كرامة، ومتخلّيا عن هويّته طلبا لرضاهم، ويعينهم على طمس كلّ ما له علاقة بفلسطين.

نضال ابن الشاطئ ولو كان شعرا يبيث في أنفاس المتخاذلين من الحكام رعبا وخشية من أن تشحذ خطاباته الشعرية ههم الثّوار، فضيّق عليه قوله، وروقت كتاباته، فما كان منه إلّا أن استعان بالرمز خشية على نفسه وإضفاء لجمالية تفتح نصّه على تعدّد القراءة وسعة التأويل، يقول:

وغدوت في عرف الدّمي خطرا وعليّ أن أمشي بلا قدم

أصطفّ حين يمرّ (سيّدنا) في موكب سامٍ.. ومحتشم..؟

وحرارة التّصفيق واجبة أوليس منه نوافل التّعم..؟؟

فسياسة (السطار) واضحة قد دجّنت ماهيّة الهمم

(الشاطئ، 2009م، صفحة 690)

استعان ابن الشاطئ برمزية (الدّمي) للإشارة إلى الحكّام العرب، حتّى لا يتعرّض شعره إلى المصادرة والتغييب، وأقبل على حصونهم يهدّها، في تصوير مشهدي يُظهر فيه السيّادة والولاء لهم بطريقة ساخرة، ويضمّر لهم فيه الهوان والذلّ، كأنّ به يقول أنّ هذا ما جعل الأرض تداس والعقيدة تهتز والهويّة تتزعزع أركانها.

استطاع الشّاعر تصوير (الآخر) في صورة العربي المتخاذل والعاجز، الذي ساعد الصّهيانية على الاستيطان والتوسّع، متخلّيا عن أرضه وهويّته، ومتنازلا عن مبادئه لغيره، بل إنه أصبح خادما للعدو، مهتما لأمره أكثر من وطنه، يقول ابن الشاطئ:

جواسيس تراقب باب داري علانية وغانية لعب

وعند مدخلي كلب نشيط يشق الأرض بحثا لو أغيب

(الشاطئ، 2009م، صفحة 125)

يعبّر الشّاعر عن معاناته مع بني قومه، ممن نصّبهم المستوطن جاسوسا عليه، يرقب حركته وينقل خبره، ولم تكن الغاية من هذه الأبيات معاناته الشخصية، بقدر ما هي حسرة لما آل إليه حال العربي المتخاذل، الذي اختار (الآخر) العدو ليكون له عوناً ونصيراً.

أثّرت زمرة المتخاذلين من الشّعوب العربية في فكر ابن الشاطئ، فسوّر نفسه وقد حلّ العجز به، تماهت مبادئه وأفلت ذاته المقاومة الثّائرة في لحظة ضعف، فكتب عن الحدث:

ألف عام مضت ونحن قعود ومدى الشرق موغل في السّواد
نتساقى الهموم في حرم الدّاء... ..ت.. ونرضى بذلنا المعتاد
نسكن الآه دائما.. ونصلي فوق كفّ الرياح والأحقاد
كاد هذا الظّلام أن يغلق الباب... ...ب.. ونبقى مطيّة الأسياد

(الشاطئ، 2009م، صفحة 85)

أراد الشّاعر إبلاغ المتلقي أنّ ما ضاع من عمر العربي في التخاذل والانطواء والدّل والبكاء دون ثورة أو مواجهة، استثماره المستوطن في التوسّع والتمدّد على أرض فلسطين، فتأكلت الهوية الفلسطينية كما تتأكل الحدود، واشتدّت قوّة الغازي بسبب الصّمت والانتكاس، لكنّ الشّاعر أبقي على أمل التّغيير والثّورة ضدّ هذا الطغيان الذي رغم طول أمدّه آيل للزوال، فالفعل (كاد) الدّال على المقاربة إشارة منه إلى أنّ العربي رغم كونه مطيّة للأسياد لسنين مضت فباب الثّورة لم يغلق بعد.

تمثّلات (الآخر) العربي المتخاذل سواء كان حاكما أو محكوما أثر على الهوية الفلسطينية، فتخلّلها الهوان والضعف، لكنّ أمل البقاء والرّسوخ ظلّ متشبّثا في صور (الآخر) الرّافض والتّائر، الذي شكّل مساحة واسعة من الخطاب الشعري لابن الشاطئ، وقد اختار له الشّاعر معجما لغويا مفعما بمفردات التّحرّر والجهد يقول:

أيّها الأنقياء هيّا إلى السّاء... ...ح.. لقد حان موعدي وجهادي
واعلموا أنّنا ضمير فلسطين ..ن.. وعمق الضّحى.. وكبر الزّناد
نتغنّى بالحبّ في الموقف الصّعب ..ب.. ونصبوا للحظة استشهاد..
أيّها الأنقياء هبوا خفافا ..ك.. (طارق ابن زياد)

(الشاطئ، 2009م، صفحة 166)

يدعو الشّاعر أبناء فلسطين إلى الثّورة والتّمرّد على المستعمر، فحرية الأرض مرهونة بالكفاح والمقاومة، ولهم في تاريخ أسلافهم نماذج من الفاتحين حقّقوا للأرض طهرها وللهوية كيانها، وقد بيّن استخدام الشّاعر ضمير الجمع (نحن/أنتم) أنّ روح الانتماء للوطن والالتزام بقضيته واستشعار الهوية هو مفتاح نصرهم، فراح يجدّد دعوته لشباب فلسطين ممّن أهتمّهم قضية أرضهم وسمعة هويّتهم، بأنّ وقت الفتح قد حان، وأنّ الأرض لا بدّ لأهلها ستعود، يقول:

يا شباب الأقصى الشّريف هلمّوا حان أن تفتحوا ضحى نيراني

حان أن تعصفوا بـ(ميززا) جهارا وتُصقّوا بقيّة الأعوان

وبأن تبحروا جميعا... فإنّا قد سكّنا حرارة الإيمان

وعشقنا الجهاد منذ عرفنا ما معنى الأوراس في قحطان

(الشاطي، 2009م، صفحة 1192)

إنّ الإيمان بالانتماء إلى الوطن، تعكسه سلوكيات الفرد تجاه الرّقعة والجماعة المشكّلة له، هذا ما حرّك الضّمائر في خطاب ابن الشاطي (أنا، أنتم، نحن، هو، هي، ...) الدّالة على (آخر) اضطربت علاقته مع ذاته وغيره، فأثر بطريقة سلبية أو إيجابية على مسار الخطاب الشعري.

2-3 الآخر غير العربي في شعر ابن الشاطي

إذا كان الآخر العربي قد شكّل حيّزا شعريا من خلال ثنائية النّصرة/الخذلان، فقد تظهر الآخر غير العربي في صورة المستوطن المعتدي، الذي لا يشارك الشّاعر في لغة أو دين أو ثقافة، ورغم ذلك يترصد مشاركته المكان، من أجل إفراغ عناصر هويّته فيه ويطمس الهوية الأصلية، من هذا المنطلق صوّر ابن الشاطي هذا (الآخر) في خطابه الشعري متمثلا في مجموعة من الصّفات، وإذا كان ابن الشاطي قد اتّخذ موقف المستنكر المعاتب للآخر العربي المتخاذل، فإنّه قد اتّخذ موقف الرّافض المتمرد على الآخر الأجنبي الغاصب، يقول:

لا أخاف الإرهاب هم صانعوه أمّ أوفى على امتداد القرون

وجهادي المشروع يفتح جرحي في تحدّ مخضّب ميمون

ليس بدعا أيّ أناضل جهرا وأصقّي الدّخيل في بعلي

(الشاطي، 2009م، صفحة 730)

تيمة التّمرد في هذا المقطع تبرز رفض الشّاعر لأي شكل من أشكال الخوف أو التنازل عن الهوية والوطن، فال(آخر) صانع الإرهاب غايته إبعاد الفلسطينيين عن أرضهم واستيطانها، ومن وراء ذلك تأسيس هوية جديدة تعطي معنى له من الوجود، لكنّ الشّاعر يصرّ على تصفية اليهود من أرضه (أصقّي الدّخيل) حفاظا على الأرض من الدّوس، وعلى الهوية من الفقد، هذا الآخر ورغم غايته المبيّنة في الاستعمار جعل من الشّاعر أكثر تمسّكا بالهوية.

اغتراب الشاعر عن الوطن لم يفك ارتباطه بها، بل جعل حس الانتماء إليها أكبر والحنين إلى ترابها أشد، لكن (الآخر) الذي مارس عليه فعل التغريب حتى يشتت هويته ويثني عزمته عرج على فلسطين يريد بها ما أراده به، يقول ابن الشاطئ:

أتى على الشرفاء وانتحل الرّبي وغدى على جسد الرّمال نزيلا
كم علّب الشهداء واغتال الضّحي متصهينا..متأمركا..ضليلا..

(الشاطئ، 2009م، صفحة 842)

يمكّننا ابن الشاطئ من خلال إظهار سلوك الآخر في هذا المقطع من استنتاج غايته بالحلول على أرض فلسطين، من هذه السلوكيات:

- أتى على الشرفاء: بمعنى قتل أهل فلسطين الأكثر تمسكا بالقضية والوطن والهوية.
- انتحل الرّبي: سرق الأراضي الفلسطينية ونسبها إليه.
- غدى على جسد الرّمال: جعل منها نُزلا يسكنه.
- علّب الشهداء: رتب توابيتهم كأنها علب كرتون.
- اغتال الضّحي: قتل روح الأمل في غد أفضل للفلسطينيين.
- متصهين، متأمرك، ضليل: الآخر الممارس للسلوك العدائي.

العمل على طمس الهوية وتوجيه الفكر لا تكون نتائجه كما هو مرجو منها دائما، لأنّ ردّة الفعل تكون دائما على نفس سلّم الفعل، ودليل ذلك الخطاب الشعري لابن الشاطئ المفعم بالحياة والانتماء والهوية، رغم محاولات (الآخر) الطمس والتغيب والحصار، يقول:

ولكم طاردت خطاي كلاب درّبتها النّوى..ولصّ هامم..
تسلخ الجلد إن تنفّس صبا فهوى القدس حين يذكو..حرام..
والسّلاح الفردي أصبح لحنا عبقريا تخافه الأفرام
بئس ما حاولوا أيّخنق شعب يركب الصّعب والخلود حزام

يتحدّث الشاعر بطريقة رمزية أضافت على النصّ بعدا قرائيا متفردا، ذلك أنّ الرمز يفتح النصّ على تعدّد القراءة وإعادة البناء، وبالنّظر إلى الرّخم الرّمزي المدرج في المقطع نستشف ما يلي:

- طاردت خطاي كلاب: ضرب الله عزّ وجل بالكلاب مثلا في القرآن الكريم قال تعالى ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ (الأعراف، الآية: 176)، وأتبعه تعالى بقوله ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ (الأعراف، الآية: 177)، ورمز الكلب في خطاب ابن الشاطي دالّ على عدم جدوى محاولات اليهود في كبح طوح الفلسطينيين أو إثناء عزائمهم.

- لصّ هام: تعبير عن محاولات اليهود إلى سرقة كلّ ما هو فلسطيني.

- لحن السّلاح: دلالة عن عدم الخشية من صوت الرّصاص، بل إنه يستهوي الفلسطيني.

- الأفزام: تصغير لليهود واحتقار لآمالهم، رغم شعورهم بالعظمة والقوة.

- الخلود حزام: كناية على أنّ الحزام النّاسف الذي يتأبّطه الفلسطيني ينقلهم من دار الدّنيا إلى جنّة الخلد.

إضافة إلى البعد الدّلالي الذي تحمله الرّموز، صرّح الشّاعر بعبثية اليهود المريدون بفلسطين وأهلها الرّوال والموت، (أينق شعب يركب الصعب) هكذا تساءل الشّاعر تهكّما عن فعل الصّهيانية، وفي هذا إبداء للتّمسك بالهوية الفلسطينية وعظم القضية في قلوب الفلسطينيين، ولعلّ ما عجز عن إبلاغه الدّعاة والسياسيون والمناضلون عن ضرورة التّمسك بالهوية، جاء ردّا لفعل الطّمس والتّضييق.

3- النتائج ومناقشتها

- يأتي الخطاب الشعري الفلسطيني تجاوز القضية الفلسطينية نحو مضامين شعرية أخرى، بحكم الحاجة الملحة إلى النّضال والحفاظ على الهوية في ظلّ الممارسات العدوانية المتخذة من طرف الصّهيانية، وكذا شحذ همم المثقّف بصفة خاصّة إلى تبني كلّ ما هو فلسطيني قياسا على أنّه أكثر وعيا وتأثيرا في الآخر.

- لم تخرج الخطابات الشعرية لابن الشاطي عن طابع الالتزام، حتّى مضامين الحب والشوق إلى الحبيبة والأولاد حملها الدلالات الرّمزية ذات الأبعاد الاجتماعية الخادمة لموضوع الهوية والانتماء.

- شكّلت الهوية موضوعا رئيسيا في الخطاب الشعري، فكان التركيز على مشاعر القلق التي راودت الشّاعر بالنّظر إلى ارتباط الهوية بالظّرف المكاني والزماني والنّفسي والاجتماعي الذي كان عرضة للتّشتيت.

- الالتزام الذي اتخذهُ الشاعر مؤطراً لرسالته من الأدب كان ضدّ (آخر) شكّل بتمثّلاته داخل النصّ هاجساً نفسياً وثقافياً واجتماعياً هدّد استقرار الهوية الذاتيّة والاجتماعية للفلسطيني إيجاباً وسلباً، لهذا اشتغل ابن الشاطئ على هذا (الآخر) من وجهة نظر أنّه عربي متخاذل (حاكم أو محكوم) أو غير عربي (الإحالة إليه بالرموز أو الضمائر أو الصفات الحقيقية).

خاتمة

الحديث عن الهوية المكانية والنفسية والاجتماعية جعلنا نبحت في الخطاب الشعري لابن الشاطئ عن إمكانية وجود هوية زمنية، وهو ما تجلّى من خلال استخدام الشاعر لمصطلحات الزمن (العمر، عشرون عاماً، خمسون عاماً، ألف عام... الخ) والأحداث المعرفة والمخلّدة له، وكذا استخدام تقنيّة التناص بشكل يفتح النصّ على فلاشات زمنية يعبر إليها الشاعر لاستشعار نشوة النصّ والفتح والمجد، ثم يعود بعد ذلك إلى زمن النصّ ليتبيّن القارئ من ذلك كيفية تشكّل الهوية الزمنية، بالنسبة للآخر (آخر) جعلتنا هذه الدراسة أمام ضرورة إخراجه من التصوير الجامد من خلال إعطائه مقابلات مباشرة، مثلاً: الآخر/المجتمع، الآخر/الصهيوني، الآخر/المتخاذل، إلى إلحاقه بالقيمة الجمالية المتشكّلة أثناء تحريكه للأحداث.

قائمة المراجع

- ابن الشاطئ. (2009م). المجموعة غير الكاملة، ط1. الجزائر: دار الأوطان للطباعة والنشر.
- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ابن منظور). (2003م). لسان العرب، دط. بيروت: دار صادر.
- البازعي سعد، الرويلي ميجان. (2002م). دليل الناقد الأدبي، ط3. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- باركر كريس. (2018). معجم الدراسات الثقافية، ط1. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.
- بركات حليم. (2006م). الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، ط1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- بن سالم حميش. (2009م). في معرفة الآخر، ط1. سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.
- خليفة عبد اللطيف محمد. (2003م). دراسة في سيكولوجية الاغتراب. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.
- ربابعة موسى. (2011م). تشكيل الخطاب الشعري دراسات في الشعر الجاهلي، ط1. عمان: دار جرير للنشر والتوزيع.
- قحام توفيق. (2016م-2017م). أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المعاصرة، رسالة دكتوراه منشورة لنيل شهادة الدكتوراه في نظرية الأدب، جامعة محمد لمين دباغين، الجزائر. سطيف.
- مرتاض عبدالمملك. (1998م). في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، ط1. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون.